سلسلة شبهات وردود 1

أصالة الدين في الحياة

إجابة عن الشبهات المرتبطة بنشأة الدين وأهميته وقوانينه وتشريعاته



ثامر الساعدي

مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة

أصالة الدين في الحياة

إجابة عن الشبهات المرتبطة بنشأة الدين وأهميته
وقوانينه وتشريعاته

طبع في لبنان

الطبعة الأولى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

تنفيذ طباعي
دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: ٠٣ ٤١٣٢٥٦
E-mail: dar.alkari2012@gmail.com

سلسلة شبهات وردود 1

أصالة الدين في الحياة

إجابة عن الشبهات المرتبطة بنشأة الدين وأهميته
وقوانينه وتشريعاته

مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة
النجف الأشرف، حي السعد، شارع ٦.
thd_srd@yahoo.com ■ thdsrd@gmail.com

سلسلة شبهات وردود 1

أصالة الدين في الحياة

إجابة عن الشبهات المرتبطة بنشأة الدين وأهميته وقوانينه وتشريعاته

ثامر الساعدي

مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة

من أهداف مركز عين:

مركز "عين" للدراسات الفكرية المعاصرة، يعنى بتفاعلات الواقع الإسلامي، ويحاول أن يؤصل للحلول والمقترحات تجاه مشكلات الإنسان المعاصر..

كما وينطلق من رؤية راسخة بقابلية الحضارة الإسلامية على قيادة الحياة وتقديم نموج يتناسب مع احتياجات العصر من غير أن ينقطع عن أصوله ومنطلقاته وثوابته..

يسعى المركز ضمن برامج بحثية وهموم ثقافية ودورات لكتابة البحوث وتصديرها، لتعزيز الوعي الاجتماعي بقضايا الثقافة والأفكار ومناقشة مطاريح التخلف والتسيد لقيم غير أصيلة في المجتمع..

ليس من أهداف المركز أو مطاريحه الاعتناء بالتبشير الطائفي، ويؤمن أن ما يحدث اليوم هو طائفية سياسية تسعى لتجيير كل الدين والإنسان في أتون معركة مصالح دنيئة.. ولا مانع من دراسات تنطلق من التسامح في التعايش والإيمان بمشتركات الإنسان دون إلغاء الآخر مع الاحتفاظ بالرصانة العلمية وشروطها..

كما يؤمن المركز أن الحلول الإسلامية تنطلق من جذورها المناسبة، ولهذا فهي تحاول التأسيس من منطلقات اسلامية خالصة، بعيداً عن كل التحيزات المحيطة..

مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين..

ونحن أمام سيل يُترى من الشبهات التي تضرب بعقول شبابنا وتحاول أن تثير في عقولهم وقلوبهم مجموعة من المغالطات والتشكيكات والزيف، لا بدّ لنا حينئذ من أن نقف موقف الرصد والمعالجة، فنرصد المثار منها أولاً ونعالجها ثانياً، بل ننتقل الى مرحلة الهجوم ورد الكيد ثالثاً.

ومن هنا لا بدّ لنا في هذه المحاضرات -التي ألقيناها بفضل الله وتوفيقه على مجموعة من الشباب المؤمن- أن نواجه هذه الشبهات عبر رصدها ومن ثم الإجابة عنها واستخراج المفاهيم العامة التي تتحصل في طريق البحث لتكون كبرى سيّالة، وقاعدة قابلة لأن تجيب على إشكالات متعددة.

كما نشير الى أن هذه المحاضرات ألقيت ثم قُررت، وأضفنا لها ما رأيناه مناسباً، وكذلك مراعاتها لمناسبة الإلقاء والحديث الشفاهي لا المكتوب. ونأمل بفضل الله وتوفيقه أن تجتمع كلها لتكون حلقات متسلسلة في الإجابة عن الشبهات

وردها.

الإشكالية في المقام تتبدى في أن هذه الشبهات واسعة وتكاد تكون شاملة لكل المنظومة الدينية، في التطبيق وفي النظرية وفي المعارف وفي الفقه والتشريع، وفي غيرها، فنحاول -بإذن الله عزّ وجل- أن نقف على مجموعة نقاط مركّزة منها ونلم شمل هذه المسائل، لأن التفرّق والتشتت لا يأتي ثماره، فنقف على مجموع هذه النقاط أو هذه المسائل ونمحورها ونمنهجها بشكل متسلسل حتى نقف عليها ونعالجها.

ونشير أيضاً، الى أن المبدأ من هذه المحاضرات ليس هو التوسّع أو التفلسف أو التنظير، بل غايتها الإجابة والبيان، وربّما تعرضنا لشيء من التحليل فيها. وفي ضوء ذلك استطردنا للإجابة بإلقاء الضوء على الفكرة وعلى الإجابة بالشكل الذي يشفي الغليل بإذن الله تعالى، أي أن المنهج المتبع هو التوضيح بما يدفع الفكرة من غير أن نعرّض الأمر الى التطويل الممل أو الإيجاز المخل.

إلهي أنت المجير الذي حللنا بفنائه، «وَأَنْتَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمِ البَرُّ الكَرِيمُ الَّذِي لا يُخَيِّبُ قاصِدِيهِ وَلا يَطْرُدُ عَنْ فِنائِهِ آمِلِيهِ بِساحَتِكَ تَحُطُّ رِحالُ الرَّاجِينَ وَبِعَرْصَتِكَ تَقِفُ آمالُ المُسْتَرْفِدِينَ فَلا تُقابِلْ آمالَنا بِالتَّخْيِيبِ وَالايِاس بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ».

الدين من منظور فلسفة الدين:

فلسفة الدين يوجد كلام كثير فيها ولكننا ننطلق من فهرستها، ولكي نبدأ نرتب -كعادتنا- البحث بطريقة النقاط حتى تتسلسل في أذهاننا ونحاول الإجابة عليها ضمن محاور، وهذه المحاور تشكل خلاصة دقيقة وسريعة وخالصة عن الشوائب المطولة حتى نستطيع معالجة الكثير من المشكلات بشكل لا يثير فينا الإرهاق والمطولات:

المحور الأول: ظهور مصطلح فلسفة الدين:

انه من أين بدأ مصطلح فلسفة الدين؟ فلسفة الدين كمصطلح ظهر في القرن الثامن عشر، هذا كمصطلح، لكنه كقضايا تعالج مسائل الدين وتعالج ماهية الدين وتعالج الشبهات عن الدين هذه قديمة.

فمسائل فلسفة الدين ومضمون هذا العلم يعالج الموقف من ماهية الدين والإشكالات عن الدين ومن أين نشأ الدين، وغيرها، هذه أكثرها مسائل قديمة، وإن كان كمصطلح لفلسفة الدين كان قد ظهر في القرن الثامن عشر.

المحور الثاني: معنى الدين:

ما معنى الدِّين؟ فحينما أقول لك عرّفه لا بدّ أن تجد له التعريف المناسب المنطبق عليه تمام الانطباق بحيث يتضح لي، من جهة ما ينطبق مع غيره أو ما يشمله وغيره، وما يميزه عن غيره ويختص به، فحينما أقول لك عرّف لي هذه قنينة الماء التي أمامك، تقول لي هذه حاجة! فكل ما هناك حاجات، فالقلم الذي بيدك والكرسي الذي تجلس عليه، كلها حاجات، فأنت تقصد من التعريف بما يميزه عن غيره، لا أن تكتفي بالتعريف الذي ينطبق على كل شيء، وحينئذ تدخلني في تعريف غير واضح لأنه يشمل كل هذه الأمور، وحينما أقول لك معرفاً لقنينة الماء بأنها، شكل اسطواني مصنوع من البلاستك يوضع فيها الماء ليشرب وقت الحاجة، فمثل هذا التعريف واضح لديّ ولا غموض تجاهه.

طبعاً نحن في فلسفة الدين سنتناول عدّة تعريفات ومن ثم نجيب عنها، ولكن ينبغي التأكيد على أن (الدين) كلمة عامّة يعني تشمل الدين الحق والدين الباطل، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون : ٦]، وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر : ٢٦]، ففرعون يخشى على دينه الباطل من

أن يتبدل، فالدين إذن مرة يكون حقاً وأخرى يكون باطلاً.

عُرّف الدين كما الحال مع (ماكس مولر) «بأنه التطلّع إلى اللامتناهي»، لكن ماذا يقصد باللامتناهي؟ هل يقصد الله عزّ وجل الذي لا متناهي في قدرته وفي كماله وفي علمه؟... وهل يقصد بالتطلّع إلى اللامتناهي تعاليم الدين فقط، وأنها تقود الى التطلع إلى اللامتناهي؟، هل يقصد وجود قوّة غيبية ما وراء عالم المادة والمحسوسات التي نحس بها؟، هذه كلها غير واضحة من التعريف، فضلاً عن أنّه لم يعبّر عن الكثير من مضمونات الدين، وقضاياه الأساسية، من التشريع، والأخلاق، والعقائد.

ومن ثمّ فإن قوله التطلع الى اللامتناهي هل يقودنا الى القول بأن هذه القوة الغيبية موجودة أم لا؟، هو يقول التطلّع إلى قوّة غيبية لكن هذه القوة الغيبية هل يعترف بوجودها حينما يقول التطلّع إلى اللامتناهي؟، هل معناه أنا اعترفت بوجود هذا اللامتناهي؟! هذا كلّه مؤشرات ودلائل على عدم قدرة هذا التعريف وأمثاله على تعريف الدين.

تعريفات أخر:

بعض عرّفه بأنّه «السلوك طبقاً لأوامر الله عزّ وجلّ». لكن

يُلاحظ عليه أن الدين هو السلوك أم التعاليم، أيهما؟ لأنه يوجد دين ويوجد تديّن، عادة يكون هناك الخلط في الموضوع.

تعالوا وانظروا ما يحتويه الدين، ما يتضمنه الدين!، لا أن تنظروا الى سلوك هذا وسلوك غيره ما دام ليس معصوماً!.

نجد العض يقول فلان تبيّن أنه كذّاب! فإذا كان فلان الذي يطبق السلوك الديني كذّاباً هل معناه أن الدِّين فيه شيء أم تديّن فلان فيه شيء؟ مثلاً المعمم الفلاني غير صالح، وإذا كان غير صالح فهل أن تديّن هذا المعمم الفلاني فيه شيء أم الدين فيه شيء، أيُّهما؟ طبعاً تدينه فيه مشكلة أي حقيقة التزامه بالتعاليم الإلهية غير منضبط أو غير حقيقي.

وعليه يجب التمييز بين الدين والتديُّن، أما كيف نميز التديُّن عن الدين، فذلك بأن التديُّن يُلحظ فيه جانب الشخص والدين يُلحظ فيه تعاليم الله عزّ وجل، فالسير طبقاً لهذه الأوامر – كما يريد التعريف- واتباع هذه الأوامر من شخص ما هو التديُّن لا الدين.

ومثل هذه نقطة جوهرية في المقام إذ أنه لا يمكن أن يأتي أحد بالدين ويضعه بدل التديُّن لأنه يؤدي لضرب الدين.

وكذلك قصور هذا التعريف عن شرح مضمون الدين

واشتماله على الحقائق والقوانين والعقائد والأخلاق.

وعرّف بعض الدين عن أنه «إحساس التعلّق بالمطلق» فنرجع لما مرّ من أن هذا دين أم تدين؟ فالإحساس بالتعلّق بالمطلق والذي هو الله عزّ وجل، فأنت تحسّ بارتباطك بالله عزّ وجل، فمثل هذا تديُّن وليس ديناً.

وعُرّف الدين أيضاً من قبل الفيلسوف الغربي هيغل بأنه «ارتفاع الروح من المتناهي وهو عالم المادّة»، وهو يرجعنا الى نفس الضبابية السابقة وأنه لا يُشار فيه إلى تثبيت ووجود قوّة غيبية، ولا إلى قوانين القوّة الغيبية أو قوانين الله عزّ وجل التي تعبّر عن الدين، ولا الى الأخلاق، ولا الى العقديات، إنه مجرد السير من المتناهي الى اللامتناهي. وتأتي عليه الكثير من النقود من الممكن أن نغمض عنها بعد بيان قصوره عن تعريف الدين.

أما التعريف الصحيح للدين فهو أنه «عقائد وحقائق وأخلاق وقوانين تشريعية تصدر من الوحي عبر الأنبياء أو العقل لغرض صيانة المجتمع البشري وقيادته نحو التكامل والرشد».

فنلاحظ حضور الغيب في الدين وارتباط القوانين والمقررات الإلهية بالأنبياء عليهم السلام، وكذلك ارتباطها بالعقل لأنه جزء من الدين والكثير من القوانين الدينية إنما تقع تحت العقل لأنها

تؤخذ منه، فما حكم العقل به (حسناً أو قبحاً) مما يقع تحت سلطنته حكم الدين به أيضاً، ولكن قد يقصر العقل عن الوصول للحكم الشرعي كما في الحكم عن البرزخ أو يوم القيامة أو نحوها، فيأتي النبي والوحي ليدلل عليها.

المحور الثالث: في معنى فلسفة الدين:

في فلسفة الدين يتكلمون بصيغة عامّة شاملة، أي يتكلمون عن الدين من غير تحديد ما إذا كان هذا الدين هو الإسلام أو اليهودية أو المسيحية، أو غيرها، هم يتكلمون من بنظرة من خارج دينية، بغض النظر عن الأديان الباطلة أو الأديان الحقّة، وبمعزل عن أي انتماء لخصوصية معينة أو دين معيّن، هكذا يصوّر البعض نظرة فلسفة الدين الى الدين.

ولكن نحن نعارض هذه النظرة؛ لأننا عندما نريد أن نثبت أن الدين يشتمل على الخرافة أو لا، أو نسبية الحقائق أو لا، أو التعدد في الحقيقة وتعددية الدين أو لا، لا بدّ في هذا كلّه من أن نترك الكلام للدين نفسه ليعبّر عن رأيه لا أن نحمّله خطأ غيره من الأديان، ولا أن نترك الكلام على العواهن بحيث يضيف كل أحد على الدين نفسه. وسنأتي على قصور هذا النظر في أن الإنسان هل

يستطيع أن يقرر لنفسه بدلاً عن الدين أو لا؟ أو هل باستطاعته أن يشرّع بمعزل عن الدين أو لا.

فلا بدّ إذن أن نثبّت في مرحلة سابقة نظرتنا في فلسفة الدين من أن نتكلم من نظرة كاشفة عن رأي الإسلام ومعبّره عن مسائله وقضاياه لا أن نضيف الآراء من عندياتنا، ونحمّل عاتق الإسلام ونلوي عنق نصوصه لنقول هذا هو الدين، في بداية الأمر علينا أن نترك الدين يتحدث عن نفسه.

بعد هذا الإيجاز، حيث عرّفنا الدين نقول الآن ما معنى فلسفة الدين، أما كلمة فلسفة وحدها قبل أن نمزجها مع الدين، وبغض النظر عن التعاريف اللغوية من أن الفلسفة من اليونانية تعني محبّة للحكمة، فالفلسفة بمعناها الاصطلاحي تدرس الموجود بما هو.

لو لاحظتم علم الكيمياء لوجدتم أنه يدرس ارتباط العناصر بشكل ما فيبحث في خواص المواد وتفاعلها مع بعضها وما ينتج عن تلك التفاعلات من سلوكيات ومعادلات.

والفيزياء يدرس الظواهر التي تحدث في الكون وصياغتها بقوانين يستطيع من خلالها التنبؤ بمسير الظواهر وحدوثها.

ويحاول الطبيب أن يدرس جسم الإنسان ويبحث في علل

الأمراض وعلاجها.

فلو لاحظتم أن كل علم يدرس جهة محددة من الموجود نسميه الموجود الخاص، فكل علم يسلّم بوجود عناصر ووجود ظواهر وأجسام ومن ثم يدرس الكيميائي هذه العناصر بعد التسليم بوجودها، ويدرس الفيزيائي هذه الظواهر بعد التسليم بوجودها، ويدرس الطبيب الجسم بعد أن يسلّم بوجوده.

أما الفلسفة فتحاول أن تؤسس لقبليات تسبق كل العلوم، فهي تدرس الموجود بشكل عام، يعني ليس هذا الموجود المحدد أو العنصر المحدد أو الجسم المحدد، بل هي تدرس الوجود بشكل عامّ، فالوجود بشكل عامّ لا متحيث بحيثية خاصّة ولا مقيد بقيد خاص ولا بزمان خاص أو بجسم خاص، فأنا أحس وجداناً أن بعض الأشياء علّة لبعض الأشياء الأخر، وهذه سبب لوجود هذه، فمثل الوجود الذي أمامنا من أين وجد؟ هل هو وجود واجبي أو وجود ممكن، ووجود أزلي باق إلى أبد الآبدين، هل أوجد نفسه من العدم، وإذا كان عدماً كيف يوجد من تلقاء نفسه والحال أنه عدم ولا شيء ولابدية إيجاده، أي أنه بحاجة الى علّة، وهكذا، فالفلسفة تبحث عن الموجود بما هو.

وقد يثار أمر قد يكون هنا محله فنطرحه ونقول: هل

باستطاعة علم الفيزياء ان يلغي ما وراء استنتاجه ويقول بأننا نرى الظاهرة الفلانية المحسوسة ولا شيء وراء عالم المادة، هل باستطاعة الفيزيائي أو الكيميائي أو الطبيب أو التجريبي -الذي يستنتج من التجارب والمحسوسات- أن يقول أنه لا شيء وراء تجربتي وأن كل ما موجود هو عالم المادة والحواس؟.

الطبيب باستطاعته أن يقول أنا وجدت أن العين ترى الأشياء وذلك حينما ينعكس الضوء بالعين بزاوية معينة فتقوم القرنية بتركيز الضوء وتتحكم القزحية بكمية الضوء، ثم يمر من البؤبؤ إلى العدسة، ومن ثم تقوم العدسة بتركيز الضوء لتتشكل صوراً على الشبكية وتحولها الى اشارات عصبية تذهب للدماغ ليفسر الدماغ تلك الإشارات العصبية كصور نراها وتطابق الواقع الخارجي تماماً.

فحين يفسر الطبيب ذلك فإنه يشرح الآلية التقنية لعمل العين لا أكثر، فإن منهجه مقتصر على أن يجيب أن العين ترى هذه الأشياء بهذه الحيثية والكيفية لا أن يجيب عن نفي عالم ما وراء المادة، أي أن منهجه فقط يثبت كيف ترى العين الأشياء لا أن ينفي عالم ما وراء المحسوسات، فمنهجه يجهد في أن يستدل على الوجود المادي لا أكثر من ذلك، ولذلك ليس له حق نفي غيره.

فنحن نسأل هل باستطاعة المنهج التجريبي أن يخرج خارج التجريب أو يطلع خارج المادة ويرى هل يوجد خارج المادة شيء أو لا، فأنت عندك مؤهلات لأن تذهب لغير المادة وترى ماذا يوجد هناك، أم أنك مؤهل فقط لأن تجيب عن هذا الوجود المادي لأن منهجك يريك المادة فقط؟! فكيف تجيب وتقول انه لا يوجد شيء غير مادي، أو تنفي عالم ما وراء المادة والذي يعبرون عنه بالميتافيزيقيا، والتي هي الظواهر والوجودات خارج عالم المادة.

أما منهج الفلسفة فمن جهة كونها تبحث عن الوجود المادي وغير المادي، وقلنا أنها تبحث عن الموجود مطلقاً سواء كان مادياً أو لا، فمن هنا لها الحق في أن تثبت –بحكم منهجها- عالم ما وراء المادة.

أما معنى فلسفة الدين، فقد تبين أن الفلسفة لوحدها تدرس الوجود بشكل عام، وحينما تضاف الفلسفة الى الدين يصبح لدينا مصطلح جديد يسمى بالفلسفة المضافة ويقصدون بها معنى ليس كذاك المعنى الذي تدرس الوجود بشكل عام، مثلاً فلسفة الفقه وفلسفة العلوم وفلسفة الأخلاق، مثل هذه تسمى بالفلسفة المضافة وتعني دراسة العلم وخلفياته ومنطلقاته والتعمق

فيه كظاهرة معرفية وتحليل نتاجاته، وهكذا فهي تدرس العلم وتحلله، ومن هنا فإن فلسفة الدين في مثالنا بمعنى انه العلم الذي يدرس ماهية الدين وأساسيات الدين وحقيقة الدين جوهر الدين، فتبحث فيه وتحلله وتجيب عن شبهاته ومنشئ الإيمان به، ونحوها.

المحو الرابع: الى أين يوصلنا الدين، او الغاية من الدين:

نسأل سؤالاً هنا ونقول: إلى أن يوصلنا الدين؟ فحينما يأتينا العلماني أو الديني ويقول إلى أين يذهب الدين بالإنسان؟

في مقام الجواب نقول أن غاية الدين وهدف الدين ينقسم الى مرحلتين[1]: وسطى ونهائية.

فعن المرحلة المتوسطة يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد : ٢٥]. فهذه الآية كأنّما تشير إلى أن هدف الدين هو أن يقوم الناس.

أما عن المرحلة النهائية فيقول تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم : ١]. فهذا الكتاب وهو القرآن الكريم يتضمن

(1) أنظر حقيقة الدين، جوادي آملي.

معالم الدين من العقائد والشرائع الأخلاق وغيرها وهذه كفيلة بإخراجكم الى النور والمعرفة والاطمئنان والراحة في الدنيا والآخرة.

ففي الآية الأولى «لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» أي أنزلنا الدين وأنزلنا الشريعة والكتب والأنبياء والأئمة حتى يقوم الناس بالقسط والحق ويعيشوا العدل والإنصاف، بحيث يكون النموذج الحضاري الذي يقدموه هو أن تصل البشرية بالدين والأنبياء والأئمة (عليهم السلام) الى مستوى القسط والحق والعدالة بحيث يأخذ كل واحد نصيبه ويعيشوا الرفاهية والبركة. ومن ثم فالقيام بالقسط في كل شيء، على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة وعلى مستوى البشرية، سيجعل من عمل الإنسان وحقيقته وباطنه متنوراً بنور ذلك العمل، بحيث تتحول حقيقته الى نور ورحمة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد : ٢٨]. والنتيجة أن ينبسط الدين على جوارح الإنسان ونموذجه الحضاري بحيث يتغلغل هذا النور في باطنه ليعيش القسط في باطنه والذي يكون نوراً ورحمة وطمأنينة عالية وهو ما يولده التزام الدين من إيمان ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

الْقُلُوبُ﴾ [الرعد : ٢٨] ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس : ٦٢]، وفي المقابل فإن من لم يلتزم الدين ولم يشعر بالقسط سينتابه الضياع والعمى والتيه في مسيرته الحضارية وكذلك التيه على المستوى الفردي وسيعيش التعاسة والحزن والألم نتيجة لفقدان السعادة الحقيقية ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ [طه : ١٢٤-١٢٥-١٢٦].

وأما في الآية الثانية «لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» فبعد أن تجسد النموذج الحضاري للإنسان من خلال القيام القسط ودولة العدل الإلهي، فعندها ينبسط النور على فعل الإنسان وعلى روحه ليخرجه من الظلمات الى النور أي نور السعادة وذكر الله تعالى وإقامة الحكم الإلهي.

فالنور الباطني والذي هو القسط في الخارج حصيلة بسط الدين قيادته على الأفعال الخارجية « لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» وعلى داخل الإنسان وقلبه وروحه، بحيث يقوده الدين نحو العوالم المعنوية والسعادة الروحية «لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ».

وعندما تتنور الروح بالتعاليم الدينية فتخرج من الظلمات تدريجاً الى النور مطلقاً بحيث يفتح القلب عينه على أسماء الله تعالى، فيشهد القلب المعارف الإلهية والحقائق فوق عالم الدنيا ويحصل له نور الفرقان الذي يفرق به بين الحق والباطل، ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام : ٧٥] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال : ٢٩].

إذن في مقام بسط الدين على الأفعال الخارجية، وهي المرحلة المتوسطة، يقود الدين الى تحقيق القسط في الفرد، ودولة العدل الإلهي في كل البشرية.

وأما في مقام بسط الدين في داخل الإنسان بحيث يتغلغل الدين في الروح الإنسانية فيقوده العمل على طبق الدين الى أن يخرج من الظلمات إلى النور تدريجاً الى النور مطلقاً ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء : ٨٩].

المحور الخامس: **أصالة الدين أو اللادينية**:

نسأل هنا: هل الدين طارئ على حياة البشرية أو أن الإلحاد أو اللادينية هما الطارئان في حياة البشرية؟

نطالع عدداً من الباحثين المهمين في تاريخ الأديان وعلماء الحضارات والانثربولوجيين يعززون ويؤكدون أصالة الدين في حياة البشر.

يقول ويل ديورانت: «إن الإيمان أمر طبيعي وهو وليد الحاجات الغريزية والإحساسات المستقيمة بصورة مباشرة، أقوى من الجوع وحفظ النفس والأمان والطاعة والانقياد»[٢].

ويقول أيضاً: «صحيح أن بعض الشعوب البدائية ليس لها ديانة على الظاهر، فبعض القبائل الأقزام في أفريقيا لم يكن لهم عقائد أو شعائر دينية على الاطلاق، إلا أن هذه الحالات نادرة الوقوع ولا يزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعمُّ البشرية جميعاً اعتقاداً سليماً وهذه في رأي الفيلسوف حقيقة من الحقائق التاريخية والنفسية»[٣].

وفي السياق نفسه يقول المؤرخ الاغريقي الشهير بلوتارك منذ نحو من ألفي سنة: «من الممكن أن نجد مدناً بلا أسوار وبلا ملوك ولا ثروة ولا آداب ولا مسارح ولكن لم يرَ قط مدينة بلا

(٢) أصول العقائد، مجتبى اللاري: ج١ ص١٢.

(٣) معالم التوحيد في القرآن، جعفر السبحاني: ص٤٢.

معبد، أو لا يمارس أهلها عبادة»[٤].

ويقول برجسون: «لقد وجدت ولا تزال حتى الآن مجتمعات إنسانية بدون علم ولا فن ولا فلسفة، ولكن لم يوجد مجتمع إنساني بدون دين»[٥].

نحن ربّما ضربنا سابقاً ببعض الأمثلة في الغرب المعاصر، فالأبحاث حول ما بعد العلمانية بدأت بالصعود، فالكثير منهم قال بالعلمانية والغاء الدين أو تنحيته جانباً، ولكن أخذت التوجهات الجديدة تعنى بأبحاث ما بعد العلمانية والتي تحاول إعادة الدين للحياة، وإعادة المصالحة -من وجهة نظرهم- بين المصالح والقيم الدينية والمصالح والقيم العلمانية.

المحور السادس: نظريات نشوء الدين:

كيف نشأ الدين؟ أو ما هو منشأ الدين؟، وفلاسفة الدين يعتنون بذلك، توجد هناك نظريات في المقام وبعضها غريبة:

(٤) السابق: ص ٦٠.

(٥) التنوع والتعايش، بحث في تأصيل الوحدة الاجتماعية والوطنية، حسن الصفار: ص ٢٤.

النظرية الأولى:

لأوغست كونت مؤسس الوضعية المنطقية التي تؤمن بالحس أساساً للمعرفة، ويؤسس فكرته انطلاقاً من أن عجز الإنسان عن تفسير الظواهر الطبيعية يفسّر لنا كيف نشأ الدين، ذلك أن جهل الإنسان وعجزه عن تفسير الظواهر الطبيعية جعله يفترض عللاً غيبية لها، فمثلاً عندما لا يعرف الإنسان البدائي كيف يتحول البخار الى سائل يقول هذه صنعها الله تعالى، وهكذا، وأُصطلح على ذلك بإله الفجوات، حيث يقرر بأنه توجد فجوات في حياتنا لم نكتشفها بعد فنحن نضع في الفجوات ونقول الإله اكتشفها، وكلما اكتشف العلم قانوناً علمياً لظاهرة ما فقد عرف العلة الكامنة وراء تلك الظاهرة ولم يعد يحتاج لافتراض الغيبيات كعلل(٦)، فمع اكتشاف العلم للقوانين وللظواهر فقد عرف علل الظواهر، هذا ما ادعاه كونت.

نحن نقول أن العلم حتى وإن اكتشف سبب تمدد الحديد بالحرارة فهذا لا يلغي السؤال عن وجود الله، نحن نسأل الحديد يتمدّد في النار لكن من خلق النار ومن خلق الحديد، فالعلم وإن اكتشف سبب انكسار الضوء فهذا لا يلغي السؤال عن سبب وموجد الضوء، وعليه فاكتشاف سبب تمدّد الحديد بالحرارة أو

أنظر: فلسفة الدين، نجوان نجاح.

اكتشاف سبب انكسار الضوء أو تحليل حزمة الضوء لا يعني أننا لم نعد نحتاج إلى الله عز وجل، إذ من خلق هذا الضوء وهذه الحزمة بهذه الدقّة والروعة.

وهذا في الحقيقة راجع للمشكلة الكنسية في أوروبا في العصر الوسيط حيث حدث تعارض بين العلم والدين لديهم، ذلك أن الخرافة التي كان يمدها الدين المسيحي في نصوصه المشوشة لم تلتقِ مع العلم وهنا حصل انفصام حاد بين المكتشفات العلمية والكتاب المقدس.

فالعلم يصر على أن الأرض تدور حول الشمس، ولكن الكتاب المقدّس يقول أن الشمس هي التي تدور حول الأرض، فولد تعارض بين العلم والدين، فأوغست كونت يفترض أن العلم حينما يكتشف شيئاً لم يعد هناك حاجة للدين، بمعنى أن العلم ضديد للدين، أو العلم بالضد من الدين، فإشكاله حقيقة راجع الى أنه يتصور وجود تعارض بين الدين والعلم، والحال أن مثل هذا التعارض ليس موجوداً بين مطلق الدين والعلم بل هو موجود بين المسيحية والعلم من جهة التزوير والتحريف الذي طال المسيحية بالذات ولم يطل الإسلام مثلاً.

فالنتيجة هي أن العلم وإن اكتشف شيئاً، فهذا لا يلغي

الدين بل العكس، ولنضرب مثالاً ونستدل له:

بناء على تفسير ولادة الكون بالانفجار العظيم، طبعاً لو قلنا أن هذه النظرية صحيحة، وخلاصة النظرية أن العلماء لاحظوا بأن المجرات تبتعد عمّا كانت عليه من قبل، فلو رجعنا بالزمن لتبين أنها كانت أقرب عمّا كانت عليه الى اللحظة التي نجد أنها كانت في نقطة واحدة وانفجر الكون منها وتكوّن الزمان والمكان وأخذ الكون وضعه الموجود والمجرات كلها كذلك، وتلك النقطة التي انفجر منها الكون مجهولة وغير معرفة ولم يكن شيئاً من الكون أو الزمان والمكان قبلها.

لكن لو قلنا بأن المكان والزمان لم يكونا موجودين من قبل، ومن ثم وجدا، فهذا يعني أن الكون لم يوجد نفسه بنفسه، لأنه كان عدماً ولا شيء ولم يوجد نفسه بنفسه، ففاقد الشيئية والوجود لا يهب الشيئية والوجود، فمع كونه عدماً كيف يهب لنفسه الوجود، وعليه فالكون لم يوجد من نفسه ولا بد أن نبحث عمّن أوجده.

ولو راجعنا الانفجار العظيم لوجدنا أنه بدأ بانفجار، مع أنه لم يكن هناك شيء لينفجر، فلا بدّ إذن من وجود أوجد الكون ومن ثم فجّره. فالعلم يحاول أن يناقشنا من لحظة ما بعد الانفجار لا

قبل الانفجار، يريد أن يحدثنا عن أن الكون بعد أن وجد انفجر عبر الانفجار العظيم وأخذ اتساعه الى هذا الحد، أي أنه يحدّثنا عن كيفية توسّع الكون لا عمّن أوجده. وهنا يتبين أن نظر العلم عن كيفية توسع الكون وطريقة توسعه لا يناقض حديث الدين عمّن الكون وعمّن أوجد الانفجار العظيم.

فالكلام الذي يثيره أوغست كونت من أن العلم كلما اكتشف أمراً استغنينا عن الدين كلام خاطئ، والدين يعزز وجود العلم فهو يسد الثغرات التي لم يستطع العلم أن يعالجها.

فضلاً عن أن كثيراً من الاكتشافات العلمية اليوم تعزز وجود الخالق، فالأنظمة البيولوجية المعقدة والدقة المتناهية التي يتحلى بها النظام الكوني والأفلاك والقوانين الفيزيائية والتفاعلات الكيميائية، والحياة التي نتمتع، كلها ليست عشوائية أو فوضوية وتشير بوضوح الى مسبب عظيم وواجد خلاق رفيع بشكل لا يدانيه أي وصف.

إن «العلم رسالة دينية الهدف منها اكتشاف الصنع البديع الذي أظهره الله في الكون»[٧].

(٧) أيان باربور، العلم والدين: ص٢٥.

ويقول فرانسس بيكون: «إنّ قليلاً من الفلسفة يقرِّب الإنسان من الإلحاد، أمَّا التعمُّق في الفلسفة فيرده إلى الدِّين!»[٨].

النظرية الثانية:

التفسير الثاني لنشوء الدين هو أنه نشأ من الاضطرابات النفسية (الهلوسة) من أن الاضطرابات النفسية هي التي جعلت الإنسان يخترع فكرة المقدس والتقديس وقادته نحو الدين.

وردّه سهل، فقيل بأن العلم الحديث اليوم يفسر الدين كأنّه معالج للهلوسات لا أن الهلوسات هي سبب للدين، فالدراسات التي قدّمها كارل غوستاف يونج من أن علاج هذه الهلوسة هو بالدين، وليس بأن تقول أن الهلوسة والاضطراب النفسي يقود للدين.

فضلاً عن أن الهلوسة او الاضطراب لا يقدم تفسيراً للدين، فلو طالعنا مضمون ونتائج الهلوسة والاضطراب لكانت مغايرة تماماً لمضمون الدين، فعندما نفتح الدين نجد التعاليم والقيم والحقائق والتشريعات والوحي وغيرها مما يختلف تمام الاختلاف عن الاضطرابات النفسية ومضمونها ونتائجها، وهذا يؤكد خرافة مثل

(٨) الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين، ترجمة: الدكتور الدمرداش عبدالمجيد سرحان: ص ٤١.

هذه الدعاوى.

النظرية الثالثة:

وهي لماركس وفيورباخ وفروم، فهؤلاء قالوا أن غريزة الإنسان للسمو وميله لطلب الكمال جعلته يبحث عن الرفعة في حياته بحيث يخلق أهدافاً مقدسة وتعاليماً سامية. وأن البنية التحتية للإنسان ليس هو الدين بل الاقتصاد والمال، فنحن عندما نأتي للإنسان نجد أن أساسه هو حب المال ولا يوجد شيء اسمه دين، بل الدين أتى من أهداف سامية اخترعت فكرة الدين.

ولكنه مردود وذلك لأن الجنوح نحو الهدف السامي يؤكد حقيقة الدين، ففطرة الإنسان التي تبحث عن الكمال والسمو تؤكد أهمية الدين في الحياة لا أنها تخلق الدين، والحال كما في الطعام، فغريزة الإنسان للبحث عن الأكل والطعام تؤكد أهميته في حياة الإنسان لا أنها تخلق الطعام.

هذا فضلاً عن أن العقل يؤيد الدين، فالإيمان لم يأتِ عبر مختلجات نفسية، أو حب السوبرمان فقط، بل الدين يؤصل لنفسه عبر العقل، وتُختبر دعاواهم من خلال ما يصدّقه العقل، فالأنبياء عليهم السلام يدعون الناس وتُختبر دعاواهم بالعقل ومن ثم يحصل الإيمان

بالدين.

وبالطبع فإن الواقع يشهد لمغالطات مثل هذا القول، فالغرب نفسه الذي يدشن البعض هذه الأقوال في ضوء نظرة الغرب وحياته المادية، هذا الغرب نفسه نجد أن لديه جنوح عظيم نحو الدين، ففكرة المال وكونه أساس الحياة لم يلغ الدين بل العكس، فالإنسان حتى لو اكتسب المال إلا أن الجانب الفطري والمعنوي من الإنسان وكذلك الجانب المادي منه نجده في أمس الاحتياج الى الدين.

كما وتشير بعض الاستبيانات الى أن نسبة الدين في أمريكا تصل ٩٠ ٪ وهي قلب التنوع الغربي ويبلغ سكانها ما يقرب ٣٠٠ مليون نسمة.

يقول أرنست رينان: «إن من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبّه، وأن تبطل حريّة استعمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين، بل سيبقى حجّةً ناطقة على بطلان المذهب المادي، الذي يريد أن يحصر الإنسان في المضايق الدنيئة للحياة الأرضية»[٩].

(٩) الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، د. محمد عبدالله دراز: ص٨٧

ويقول آرنولد توينبي: «الدين إحدى الملكات الضرورية الطبيعية البشرية، وحسبنا القول بأن افتقار المرء للدين يدفعه إلى حالة من اليأس الروحي، تضطره إلى التماس العزاء الديني على موائد لا تملك منه شيئاً»[١٠].

«فالدين ليس قوة محافظة كما يرى "كارل ماركس"، بل إن بعض الحركات الدينية أحدثت تحولات جوهرية في المجتمعات الغربية، فقد كانت البروتستانتية خاصة الكالفينية منها المنبع الأساس للرأسمالية حيث كان أوائل المبادرين بالمشروعات التجارية من أتباع البروتستانتي "كالفن"، وكانوا في اندفاعهم لتحقيق النجاح، الذي أسهم في انطلاق التنمية الاقتصادية الغربية، يصدرون عن رغبة في خدمة الله، وكان النجاح المادي بالنسبة إليهم علامة من علامات العناية الإلهية»[١١].

لقد أيقن كل من نواليس وكانط، وهما من أنصار العقلانية، أن القوى الدنيوية لا تستطيع أن تحافظ على توازنها ما لم يتماسك المجتمع بفعل الدين. ولذا تسعى اللجنة الأوروبية في

---

(١٠) حاجة الإنسان للدين، مقال منشور على الانترنت.

(١١) أنظر: الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ترجمة: محمد علي مقلد، وكذلك غيدنز: ص٥٠٢.

مشروعها "إعطاء أوروبا روحاً" Giving a Soul to Europe لكي تسري بعض الروحانيات في هذه القارة من جديد[١٢].

ولذلك يمكن أن نقول -كرد عام على كل النظريات التي مرّت- أن الإشكالات السابقة والنظريات التي تفسر نشوء الدين إنما هي تفسر نشوء التدين لا الدين، فميل الإنسان للسمو أو أن الاضطرابات النفسية قادت الى الدين، أو العجز عن التفسير العلمي قاد الى الدين، هذه كلها من التدين وتحاول أن تفسر التدين، مع ما سجّلناه عليها من ملاحظات، والفرق واضح بين الدين والتدين كما مرّ سابقاً.

النظرية الرابعة:

إننا في نظرتنا للدين قلنا أن ميل الإنسان للسمو اخترع الدين أم قلنا أنه توجد أدلة عقلية على الدين، أيُّهما؟ نحن نقول بأنه توجد أدلة عقلية على إثبات حقيقة الدين ولا علاقة لها بميل الإنسان للسمو أو الاضطرابات النفسية أو العجز عن التفسير العلمي.

إذن من أين نشأ الدين؟ طبعاً الجواب عن منشأ الدين جواب عن الكثير من الإشكالات، فعندما يسأل أحدهم لماذا حرم

---

(١٢) الإسلام في الألفية الثالثة ديانة في صعود، مراد هوفمان: ص١١٠.

الله تعالى الغناء، لماذا قال صوموا، لماذا الالتزام؟ لماذا الحجاب؟ وغيرها، كل ذلك ممكن الإجابة عنه بالإجابة عن منشأ الدين من وجهة نظر الإسلام.

إننا نعتقد بأن الفطرة المودعة في الإنسان والأدلة العقلية قائمة على إثبات وجود الله تعالى وحقانية دعوة النبي ﷺ، هذه الأدلة كافية للتدليل على حقيقة وجود الدين.

يعني أن الأدلة نفسها التي تثبت وجود الله والأدلة نفسها التي تثبت حقانية نبوّة النبي ﷺ، هذه الأدلة كافية لتقول كيف نشأ الدين، وهي كافية لتفسر حقانية الدين. والأدلة العقلية كثيرة، وقد توضحها الرواية الشريفة، فعن هشام بن الحكم، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال للزنديق الذي سأله من أين أثبت الأنبياء والرسل؟ قال عليه السلام: «إنه لما أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنّا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً لم يجز أن يشاهده خلقه، ولا يلامسوه، فيباشرهم ويباشروه، ويحاجهم ويحاجوه، ثبت أن له سفراء في خلقه، يعبرون عنه إلى خلقه وعباده، ويدلونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبرون عنه جل وعز، وهم الأنبياء عليهم السلام وصفوته من خلقه، حكماء مؤدبين

بالحكمة، مبعوثين بها، غير مشاركين للناس - على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب - في شيء من أحوالهم مؤيدين من عند الحكيم العليم بالحكمة، ثم ثبت ذلك في كل دهر وزمان مما أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين، لكيلا تخلو أرض الله من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقالته وجواز عدالته»(١٣).

والرواية تصرّح بالتالي:

أ- إن النبوة تثبت بعد إثبات وجود الحق تعالى «إنه لما أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً....» وإثبات الحق تعالى عبر العقل واضح.

ب- بعدما أثبتنا وجود الحق تعالى، نأتي لإثبات كون الخالق الواجد حكيماً، ذلك أن الحكيم لا يعبث ولا يلهو، لأنه وراء سعة هذا التدبير ودقة هذا الكون العظيم، هذا التدبير والتدقيق والحكمة الواضحة في أفعاله وصنائعه تدل على كونه خالقاً حكيماً، وهذا لا يتناسب مع كونه عابثاً فوضوياً فإذن الخالق الحكيم لا عبث ولا لغو في أفعاله.

(١٣) الكافي: ج ١ ص١٦٨.

ت- إن الناس وهم خلق الله تعالى وصنعه يحتاجون في حياتهم ومعاشهم وتدبير أمورهم إلى من يرشدهم ويدلهم على هدف خلقهم والى أين يصيرون ومن أين أتوا، فيحتاجون الى قوانين تدبّر أحوالهم والى من يدلّهم على طريق الفوز والفلاح ويجنبهم طريق الهلاك والعذاب.

ث- في المرحلة الثانية تثبت النبوة فحيث أثبتنا أن الله عز وجل خالق حكيم وهو فوق المادّة ومتعالي عنّا، فكيف تصل تعاليمه وكيف يدل العباد على طريق الفلاح ويجنبهم طريق العذاب والهلاك؟ قلنا عبر الرسل «ثبت أن له سفراء في خلقه».

ج- أن يكون النبي والسفير الإلهي من نوع الإنسان لا متعالياً عنه وفوق أن يراه لأن مقتضى سفارته له أن يدله على الهدى بحيث يراه ويحاكيه ويكون أسوة له في طاعة الله تعالى، لكن هو مختلف عنّا من جهة عصمته ونزول الوحي عليه.

ح- إثبات النبوة بالعقل «مما أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين»، فهم عليهم السلام إنما يثبتون

النبوة بالمقدمات والنتائج القطعية، أي بالبرهان الواضح الساطع الذي يكون حجّة على الخلق.

خ- عمدة البرهان العقلي الذي أتى به الأنبياء عليهم السلام هو المعجزة التي تثبت للعقل أن هذا النبي مبعوث من خالق الكون وصانعه وقدرته العظيمة، «لكيلا تخلو أرض الله من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقالته وجواز عدالته».

د- بعد أن ثبت بالبرهان والعقل الصريح نبوّة الأنبياء عليهم السلام، وصدق دعاواهم الثابتة بالعقل والقطع لازمة في إتيانهم للدين وبهذا يثبت منشأ الدين وإتيانهم به -أي الأنبياء عليهم السلام- وحقانيته «يعبرون عنه إلى خلقه وعباده، ويدلونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبرون عنه جل وعز، وهم الأنبياء عليهم السلام وصفوته من خلقه».

جواب عام عن الشبهات:

وحينئذ نستطيع أن نؤسس قاعدة عامّة للإجابة عن

الشبهات، لو سأل أو أشكل أحدهم، وقال: لماذا حرم الله تعالى الغناء؟، أو لماذا أمرنا بالالتزام والصوم وحرم الفواحش وغيرها؟، سنجيبه -بجواب عام ويبقى الجواب التفصيلي موكول الى محلّه- وحاصله قد تقدّم الآن، وهو أنه قد أثبتنا وجود الخالق عزّ وجلّ وأنه منزّه عن النقص والخلل، متصف بالحكمة، وحكمته في خلقه وصنعه مثلها حكمته في قانونه وتشريعه، فحيث الحكيم المتعال من كل جهة في خلقه البديع المتقن، فمثله في تشريعه وقانونه، ومعه -أي ومع الحكمة المتقنة في تشريعه وقانونه- فلا معنى للإشكال والوسوسة في السؤال عن علة الغناء وعلة الصوم وعلة التشريعات لأنها حكيمة ومتقنة وفي مصلحة العبد، فالذي خلقه وسواه أعرف بما يصلحه ويهديه. وهذا الجواب العام كاف في الإجابة عن مثل هذه الشبهات.

وفي الغرب لو سألت وقلت: لماذا الديموقراطية تأخذ بالقانون المصوّت عليه ٥١٪ ولا تأخذ برأي ٤٩٪ من المصوتين مثلاً؟

سيقول لك لأنه رأي الأغلبية، ولكن يحتمل أن يكون الـ ٤٩٪ هو الرأي الحق، وحينئذ ينبغي أن نميل مع الرأي الصواب والحق لا رأي الأغلبية الباطلة، فلا بدّ من معيارية الحق، فلا

الأكثرية هي المطلوبة ولا الأقلية هي المطلوبة، بل الحق أينما صار.

ولكن الغربي يقول لك: إن أفكارنا لا تعتني بالحق والحقانية، فهذا المكون الفكري (وهو عدم الإيمان بالحقانية) ينعكس في التشريع فنأخذ برأي الأغلب بمعزل عن الحق، ونأخذ بالديمقراطية التي مقتضاها تغليب الرأي لا الإلزام بالحق.

فمثل عدم الاعتناء بالحق وتبرير الباطل هكذا ينعكس في التشريعات الغربية، فيتم تشريع الزواج المثلي واستغلال طاقات الشعوب والحروب العمياء التي ألقت بشعوب كاملة في عرض البحر، كما يحدث في سوريا، وغيرها وغيرها، كل ذلك لأجل تغليب الرأي الأكثر.

وعليه فالمكونات الفكرية تنعكس في التشريعات، فالقانون بحد ذاته لا يُسأل؛ لأنه محض مادة قانونية، ولا بدّ من مراجعة المكونات الفكرية والعقدية والإيدلولوجية التي بررت لهذا التشريع أو ذاك.

فأنت حينما تسأله لماذا لا تأخذ بالـ ٤٩٪، وتأخذ بالـ٥١٪، سيقول لك لا تسألني عن هذا الفعل، بل اسألني انه هذا يعبّر عن فلسفتي الكونية والعقدية، ومثله في التشريعات الإسلامية، حينما يقول لك أحدهم لماذا تحرمون الغناء؟، لماذا الحجاب؟، ومثله

الكثير من الأسئلة، سنجيبه -بالجواب العام- ونقول: إن لهذا التشريع فلسفة كونية هي التي بررته، حيث أثبتنا وجود الخالق عزّ وجلّ وأنه منزّه عن النقص والخلل، متصف بالحكمة، وحكمته في خلقه وصنعه مثلها حكمته في قانونه وتشريعه، فحيث الحكيم المتعال من كل جهة في خلقه البديع المتقن، فمثله في تشريعه وقانونه، ومعه لا معنى للإشكال في الغناء والصوم وغيره من التشريعات لأنها حكيمة ومتقنة وفي مصلحة العبد، فالذي خلقه وسواه أعرف بما يصلحه ويهديه.

المحور السابع: منشأ الدين من وجهة الحكماء:

لا زلنا في تفسير منشأ الدين، ولكن نريد الآن تفسيره على مبنى الحكماء، وها هنا مقدمات[١٤]:

الأولى: إن الإنسان مدني بالطبع. قال ابن خلدون في المقدمة: «والنسبة فيه إلى المَدِينة، وهي عندهم كناية عن الاجتماع البشريّ، ومعنى هذا القول: أنّه لا تمكّن حياةَ المنفرد من البشر، ولا يتمّ وجودُه إلّا مع أبناء جنسه، وذلك لما هو عليه من العجز عن استكمال وجوده وحياته، فهو محتاج إلى المعاونة في جميع

(١٤) أنظر: حقيقة الدين، جوادي آملي.

حاجاته أبداً بطبعه، وتلك المعاونةُ لا بدّ فيها من المفاوضة أوّلاً، ثم المشاركة وما بعدها، وربّما تفضي المعاملةُ عند اتّحاد الأغْراض إلى المنازعةِ والمشاجرةِ، فتنشأ المُنافَرة والمُؤَالَفة، والصّداقة والعداوة، وتؤول إلى الحرب والسِّلم بين الأمم والقبائل، وليس ذلك على أيّ وجه اتّفق، كما بين الهَمَل من الحيوانات، بل البشر بما جعل الله فيهم من انتظام الأفعال وترتيبها بالفكر...، جعل ذلك منتظما فيهم، ويسِّرهم لإيقاعه على وجوه سياسيّة وقوانينَ حكميّة، ينكِّبُون فيها عن المفاسد إلى المصالح، وعن الحسن إلى القبيح، بعد أن يميّزوا القبائحَ والمفسدةَ بما ينشأ عن فعل ذلك عن تجربة صحيحة، وعوائد معروفة بينهم، فيفارقون الهمَل من الحيوانِ، وتظهر عليهم نتيجة الفكر في انتظام الأفعال وبعدها عن المفاسد»[١٥].

والنتيجة أن المعنى أن الإنسان يعيش في مجتمع يتكون بشكل مجاميع وأفراد وبشكل مجتمعي، فهو مدني الطبع وليس منفرد الطبع أو بدوي الطبع.

الثانية: مع كونه مدنياً بالطبع إلا أنه أناني، أي طالب لذاته،

(١٥) مقدمة ابن خلدون، حقيق: عبد السلام الشدادي: ج٢ ص٢٤١.

صحيح أنه يعيش في المجتمع لكن يريد المصلحة لذاته، فهو بطبعه يريد الحاجة لذاته.

الثالثة: طلبه لذاته وأنانيته يعزّز فكرة التعدّي على الغير، فلازم الأنانية والاستئثار أن يتعدّى على غيره، فهذا يريد هذه له، وذاك يريدها، فيحصل التنازع من أجل الذات والنفوذ والسلطة.

الرابعة: التعاليم الوحيانية تعدّل طلب الأنانية وتهذبه وترشّده، فالإنسان أناني الطبع ولكن تعاليم الوحي تهذّب هذه الأنانية من خلال البرامج والقوانين والمرغّبات والمخوّفات والطاعات، وبالنتيجة هذه الأنانية ستتهذّب وتتنظّم.

الخامسة: هذا القانون لا بدّ أن يكون إلهياً؛ لأنّه إذا لم يكن إلهياً فيكون إنسانياً والإنسان طالب لذاته فيكون القانون طوعاً لأنانية البعض على حساب البعض الآخر.

فضلاً عن أن الإنسان وما يشتمله على الأبعاد المعنوية والروحية، وما يشتمله الكون والخلق من أهداف وغايات علينا أن نسير اليها وفي ضوئها لتحقيق الكمال المنشود الذي خُلقنا لأجله، كل ذلك لا يمكن للبشر إدراكه لكي يصوغ القانون المناسب له.

السادسة: اقتضت الحكمة الإلهية أن تعتني بالبشرية؛ لأن خالقهم لم يخلقهم لعبث أو لهو، بل لهدف وغاية، وسنتعرض

مستقبلاً بإذن الله تعالى لأبحاث مفصلة في الغاية من الخلق.

إذن، حين عرفت أن الله تعالى خلق الخلق وجعل لهم غاية يسيرون اليها، مع كون الإنسان طالباً لذاته ولازمه التعدي على غيره، كل ذلك يستدعي أن يكون للبشر قانوناً كاملاً يسعدون بتطبيقه ويمنعهم من التعدي على بعضهم ويقودهم الى الخير والصلاح فيرسل الله تعالى الأنبياء عليهم السلام لتبليغهم وفض النزاعات بينهم وإقامة المجتمع على أساس القسط والعدل.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على خير الخلق أجمعين محمد وآله الطاهرين.

الفهرس

سلسلة شبهات وردود 1

أصالة الدين في الحياة

إجابة عن الشبهات المرتبطة بنشأة الدين وأهميته وقوانينه وتشريعاته

ثامر الساعدي

مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة